المحاضرة رقم الحادية عشر: فترة حكم الأسرة الحسينية بتونس ١٧٠٥-١٩٥٧

في شهر ربيع الأول من عام ١١١٧هـ الموافق لشهر ١٥ جويلية من عام ١٧٠٥ م، انتقلت الولاية في تونس إلى حسين بن علي، فأسس أسرة حاكمة جديدة هي الأسرة الحسينية التي استمرت في الحكم في تونس إلى الاستقلال وإعلان الجمهورية بها عام ١٩٧٥م .

ويعتبر حسين بن علي من المولدين أي من الكورغلية فأبوه علي من جزيرة كانديا اليونانية ، وأول ما انشغل في خدمة محمد الباي المرادي ١٦٧٥_١٦٩٦ برتبة خزندار ثم شغل كاهية (نائب الباي) ثم آغا الصباحية ، وحينما ولي الخلافة حضي بمساندة الأعيان والعلماء وقد عرفت البلاد في عهده ١٧٠٥_١٧٢٨ رخاء اقتصاديا واستقرارا ساسيا وفي بدايات حكمه الأولى اضطر الى الخروج من مدينة تونس تحت ضغط من الأتراك والداي محمد خوجة الأصفر ، ورحل الى الأرياف (قبائل دريد ورياح) فكانت له سيطرة على المناطق الداخلية ، وتمكن من إخضاع وإلحاق مؤسسة الداي الى سلطته وخاصة المهام القضائية في المحكم . كما بادر الى تخفيض الضرائب على الرعية وساوى بين الأتراك والبلدية ، وربط علاقات سلمية اقتصادية مع الدول الأوربية وخاصة مع فرنسا (الشركة الملكية الافريقية ١٧١١) ، حتى قال عن نفسه : "ان افريقيا كسجارة طويتها وجلست عليها " . أنشأ مدرستا الحسينية والنخلة و بنى قصرا في باردو اتخذه مقرا رسميا لحكومة من الايالة وإحياء مدينة القيروان وفي الأيام الأخيرة من حكمه طفحت أزمة سياسية والتي أطلق عليها الأزمة الباشية .

يقصد بالأزمة الباشية الصراع بين حسين بن علي مع ابن أخيه علي بن محمد الذي كان قد عهد إليه ولاية العهد ولكن ما ازداد له ولد عام ١٧١١ وسماه محمد فكر في إبعاد بن أخيه من ولاية العهد ، ولكن هذا الأخير انتصر عليه وفر علي

باشا إلى الجزائر التي قدمت إليه يد المساعدة واتخذ منها قاعدة لشن هجومات على تونس إلى أن تمكن من السيطرة على تونس ١٧٣٥ ، والانتصار على حسين بن علي وقطع رأسه ماي ١٧٤٠ بينما فر أبنائه إلى الجزائر.

من عام ١٧٣٥ تبدأ مرحلة حكم ولاية تونس من طرف علي باشا بنوع من الشدة والصرامة إذ سلك سياسة قمعية ضد الحسينيين والقبائل التابعة والموالي لهم وهذا ما أدى إلى ردود أفعال عنيفة كانتفاضة الهمامة سنة ١٧٥٠ التي قمعها بشدة وصادر أموالها وأرزاقها حوالي ١٣ ألف بعير.

والشيء نفسه سلكه في علاقاته مع جيرانه الجزائريين حينما امتنع عن دفع الاتاوات المفروضة عليه عام ١٧٤٦ فجهز داي الجزائر حملة فشلت ثم حملة أخرى ضده عام ١٧٥٦ تمكن فيها داي الجزائر من احتلال مدينة تونس وقتل علي باشا ، وتنصيب محله على العرش محمد بن حسين بن علي ١٧٥٦_١٧٥٩ وبذلك استعاد أبناء حسين بن علي عرشهم من جديد واعترفوا بسيادة داي الجزائر عليهم ، مستانفين دفع الاتاوة السنوية والموافقة على بيع قطعان الأغنام والبقر التي تبعث سنويا من الجزائر إلى نواحي غرب تونس لكي تباع هناك بصورة قسرية وتحت اشراف مبعوث الباي (باي قسنطينة) . بعد وفاة محمد بن حسين بن علي (باي تونس) تولى بعده أخوه علي باي ١٧٥٩ اذ شهدت فترة حكمه اندلاع ثورة ضده قادها اسماعيل بن يوسف حفيد علي باشا بن محمد انطلاقا من جبل وسلات وتواصلت هذه الثورة الى غاية عام ١٧٦٢ حيث أخمدت الثورة حين انتصر علي باي وقرر إخلاء جبل وسلات من سكانه نهائيا وبعدما شهدت البلاد فترة رخاء اقتصادي لم تعرفه تونس من قبل ، فقد توسعت الأراضي الزراعية نتيجة زيادة الطلب على استصلاح وإحياء مساحات كبيرة إلى درجة أن أصبحت تونس تصدر الحبوب الى الدول العربية وخاصة فرنسا ، بعد التوقيع على معاهدة ١٧٧٠ اي بعد احتلال فرنسا لجزيرة كورسيكا عام ١٧٦٩ ورفض الباي لهذا الفعل الفرنسي .

عهد حمود باشا ١٧٨٢_١٨١٤

عهد الخلافة الى ابنه حمود باشا ١٧٨٢_١٨١٤ الذي تولى أعباء الولاية بحكمه مستعينا ببعض أعيان البلاد منهم على الخصوص الوزير يوسف صاحب الطابع ورئيس الكتبة محمد بن محمد الأصرم وقائد الجيش سليمان كاهية فشهدت البلاد نهضة في مختلف المجالات الفلاحية والتجارية والصناعية . كما حفلت فترة حكمه بالحروب منها حروبه ضد علي برغل (طرابلس الغرب) الذي أراد الاستيلاء على جزيرة جربة ، فأعدّ له حمودة باشا ٤٠الف مقاتل تمكن من طرده من طرابلس الغرب وإعادة الحكم الى الأسرة الفره مانلية١٧٩٥م. كما حقق العديد من الانجازات الهامة ، منها:

إتباع سياسة خارجية معتدلة قائمة على أساس الانفتاح نحو العالم الأوربي ولاسيما فرنسا، وفي الوقت نفسه عمل على توثيق الصلات بالدولة العثمانية، ونجاحه في صدّ الغارات البحرية التي قامت بها جمهورية البندقية على تونس، واعتماد على جهاز إداري وطني في تسير شؤون البلاد. والتخلص من الهيمنة الجزائرية .

تولى بعده اخوه عثمان باي لفترة وجيزة ليتمكن ابن عمه محمود باي من السيطرة على زمام الحكم في ٢٤سبتمير ١٨١٤ حيث عرفت عهدته بعقد صلح نهائي مع الجزائر حول مشكلة الحدود ويعاب عن قتله للوزير يوسف صاحب الطابع بعد وشاية من خصومه .

و خلفه ابنه حسين باي ١٨٢٤_١٨٣٥ في فترة حكمه عاصر أحداثا هام وخطيرة في العالم الإسلامي منها موقعه نافارين ١٨٢٧ ، واحتلال فرنسا للجزائر ١٨٣٠ . وقد خلفه اخوه مصطفى باي لمدة وجيزة ١٨٣٥_١٨٣٧ ثم جاء بعده المشير احمد باي ١٨٣٧_١٨٥٥ في عهده حفلت تونس بمظاهر الحركة الإصلاحية وقد وجه عناية خاصة بالجيش وتدريبهم أحسن تدريب بأن أنشأ مدرسة عسكرية لتخريج الضباط (باردو العسكرية) اذ جلب إليها أساتذة ايطاليين وانجليز وفرنسيين فكانت تدرس الرياضيات والمدفعية والتعبئة الحربية والشخصيات البارزة والتاريخ والجغرافيا ، وقد بلغ عدد أفراد الجيش الى حوالي ٣٠الف جندي ، كما اهتم بتنظيم التعليم بجامع

الزيتونة فأنشأ خزانة للكتب ودعا إليها الأساتذة من مختلف الأقطار : "مكتبة الأحمدية ١٨٤٠" كما أنشأ مدينة جديدة سماها المحمدية ونقل إليها مقر حكومته بدلا من باردو.

إلا أن هذه الأعمال قد زادت من الأعباء المالية للايالة ، إضافة الي المشاركة في حرب القرم ١٨٥٣_١٨٥٦ مع الدولة العثمانية ضد روسيا القيصرية .

خلفه على الولاية محمد باي الثاني ١٨٥٥_١٨٥٩ في عهده اصدر دستور سماه عهد الأمان ١٨٥٧ الذي تكلف بصياغة نصوصه كاتب أسرار الوالي الشيخ احمد ابن ابي الضياف (١٠ سبتمبر ١٨٥٧) قرئت نصوصه على الأعيان ووفود الدول الاوربية (ليون روش _ريتشارد وود) كما اهتم هذا الوالي بتظيم القضاء الشرعي الذي كان يعقد بانتظام يوميا ويحضره القاضيان المالكي والحنفي . كما ستحدث عام ١٨٥٨ مجلسا بلديا بتونس لتنظيم شؤون المدينة وإصلاح طرقاتها وإنارتها. وقد عرفت فترة بروز العديد من رجال العلم منهم الشيخ الاسلام محمد بيرم الرابع والقاضي محمد الطاهر بن عاشور.

الباي محمد الصادق ١٨٥٩-١٨٨٢:

في عهده شرع في تطبيق عهد الأمان فأنشأ مجلسًا منتخبًا مؤلفًا من "٦٠" ستين عضوًا للنظر في مصالح البلاد وسنّ قانوناً يضمن حقوق الفلاحين، ووضع منهجًا خاصًا لتوزيع الأراضي الأميرية على سكان البادية وأصلح مناهج التعليم، وأسس المدرسة التي عرفت باسمه " الصادقية" للعلوم واللّغات وأرسل خبراء أجانب وسمح لرؤوس الأموال الأجنبية بسبيل العمل على استثمار ثروات البلاد المعدنية والزراعية والصناعية كما وطد علاقات تونس مع فرنسا وكان متحمسا للتجديد والإصلاح غير أنه كان يعتمد في تنفيذ مشاريعه على الاستدانة من الدول الأجنبية(

فرنسا) تلك الديون فتحت جسرًا للتدخل في شؤون تونس الداخلية وتسيير جهازها الحاكم كخطوة أولى .

بدأت فرنسا تبحث عن ذريعة للتدخل في تونس عسكريا فوجدت في اجتياح بعض القبائل التونسية حدود الجزائر فرصتها المنشودة فسيرت حملة من الجزائر بحجة التنكيل بالمعتدين وضبط الأمن بالبلاد في ماي١٨٨١م. وتقدمت الحملة إلى أن بلغت في ١٢ماي "قصر باردو" مقر الباي محمد الصادق وأرغمه قائدها على توقيع المعاهدة المشؤومة التي عرفت "بمعاهدة باردو" والتي وافق فيها الباي مرغمًا على احتلال القوات الفرنسية الأماكن التي ترى احتلالها ضروريًا ،وتمثيل المملكة التونسية بالخارج ، وحماية مصالحها ورعاياها في البلاد الأجنبية بواسطة الممثلين الفرنسيين، وعدم إبرام أي عقد ذي صبغة دولية مع أي دولة كانت دون علم فرنسا وموافقتها.

ومن تاريخ ١٢ماي ١٨٨١م، تبدأ مرحلة جديدة في تاريخ تونس في ظل الحماية الفرنسية مع المحافظة على استمرار نظام حكم الأسرة الحسينية تحت الوصاية .

.....